

الفصل السادس عشر

بلورة قيم من خلال التجربة والحوار

منير فاشه*

ملخص: ستمحور مساهمتي بشكل رئيسي حول المبادئ والقيم التي تحكم قولي وفكري وعملي في حياتي ككل، والتي تبلورت عبر صراعات مع الحياة في مجال التعليم وغير التعليم، وعبر حوارات ومجادلات ومناقشات مع الآخرين، على مدى الخمسين سنة الماضية، وكيف أمارسها الآن في عملي وعلاقاتي، وكيف أرى علاقة ذلك بالتعليم. فالكلام عن القيم في معزل عن الممارسة والسياق هو نوع من الزيف والمراءة. كذلك فإن موضوع القيم مرتبط بقضية أخرى هامة جداً، ألا وهي مشكلة كبرى في التعليم السائد، لا تكمن فقط فيما يُعطى بقدر ما تكمن فيما يُهمل. نتحدث مثلاً في المنهج ونهمل النهج: ونناقش حول الأهداف وننسى المبادئ.

سأختار الملتقى التربوي العربي وقلب الأمور كمثال لتجمع يعمل وفق مبادئ وقيم مشتركة (لا أهداف مشتركة)، ويعمل ضمن نهج وليس منهج، فالمناقشات في الملتقى، مثلاً، تركز ليس على صحة أو خطأ ما يقوله الشخص بل على وضوح القول ومدى ربطه ذلك بالسياق والنهج والمبادئ والقيم التي نعمل وفقها في "الملتقى" وكيف نحاول خلق حوار حولها. ويتضمن هذا بطبيعة الحال مناقشة المعاني السائدة والمعاني الغائبة للكلمات المستعملة في الحياة بوجه عام وفي مجال التربية والتعليم بوجه خاص.

مقدمة

- توضيح القناعات الأساسية ومعاني بعض الكلمات

لا بد في البداية من توضيح القناعات والمعاني التي أركز عليها في المقال.

* دكتوراه في التربية - جامعة هارفرد، ١٩٨٨، الولايات المتحدة الأميركية. مدير "الملتقى التربوي العربي" التابع لبرنامج الدراسات العربية في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد - أميركا.

هناك نوعان من القيم، قيم ندعيها وقيم نعيشها. في حال توافقت المجموعتان (أي القيم التي ندعيها والقيم التي نعيشها)، عندها لا توجد مشكلة. أما في حال عدم توافقهما، فعندها ندخل عالم الزيف والرياء والتزوير - سواء أكان ذلك عن وعي منا أم عن غير وعي.

في هذا المقال، عندما أستعمل كلمة "قيم" فأني أعني بها القيم التي نعيشها، أي التي لا نخالفها في أفعالنا وفي علاقاتنا وتعاملنا مع الآخرين وفي علاقتنا مع الطبيعة وفي مواقفنا العملية (أي التي نكون على استعداد لدفع ثمن من أجلها)؛ هي المبادئ التي تحكم ما نفعله، لا ما نقوله أو نفكر فيه (إلا إذا كان ذلك متوافقاً مع ما نفعله). فأفعالنا هي المقرر الحقيقي للقيم التي نحملها ونعيش بموجبها.

هذا لا يعني أن جميع القيم داعمة للحياة، إذ يمكن التمييز بين نوعين من القيم المعاشة. فهناك قيم نعيشها ولكنها تمزق الإنسان من الداخل وتمزق النسيج الاجتماعي الروحي في المجتمعات وتلوّث الطبيعة. وهناك قيم نعيشها وتبني "العالم الداخلي" للإنسان، وفي الوقت نفسه تجدل النسيج الاجتماعي الروحي في المجتمع. هي، باختصار، قيم تتمحور حول علاقات جميلة بين الناس وحول احترام الطبيعة بمعنى أنها لا تمسّها بأية طريقة تضرّ بالأجيال القادمة. (من الجدير ذكره هنا أن أحد قيم سكان أمريكا الأصليين الذين أبادهم الأوروبيون هي الاهتمام بالجيل السابع، أي التساؤل دائماً حول كيف يؤثر ما نفعله ونقوله ونفكر فيه على الجيل السابع من الآن - ما أروعها من قيمة!)

هناك توضيح آخر هام. إذا قلت مثلاً إنني لا أعتبر الربح قيمة، فإن ذلك لا يعني أنه غير هام أو يجب محاربته؛ وإنما أعني أنه يجب أن لا يكون المقرر النهائي بالنسبة لما أقوم به فعلاً. فالذي يحدد مثلاً فيما إذا كان الربح قيمة أم العلاقات الجميلة قيمة هو ما يحكم أفعالي في الحالات التي عليّ أن أختار فيها بين الاثنين. فإذا اخترت أن "أدعس" على الناس ولا أكرث بما يحدث للطبيعة وأختار الربح، يكون عندها الربح هو القيمة التي تسيّرني. أما إذا اخترت المحافظة على علاقات جميلة بين الناس والمحافظة على الطبيعة، مهما كان

الثمن على المستويات الأخرى، عندها تكون العلاقات الجميلة بين الناس والمحافظة على الطبيعة هي القيم التي تحكم حياتي. من هنا، ليست المشكلة فيما إذا كنا نحترم قوانين السوق في الاقتصاد أو لا نحترمها، وإنما في أن نسمح لقوانين السوق أن تكون المقرّر النهائي فيما نفعله.

هناك أمر آخر بحاجة إلى توضيح. عندما أتكلم عن علاقة الإنسان بالآخرين فإن ذلك يشمل العلاقة مع الذين ماتوا والذين لم يولدوا بعد، أي تشمل ما ندعوه بالتقاليد بمعنى عدم إهمال "التربة الحضارية الثقافية" التي يتغذى منها الناس، وعدم إهمال التاريخ الذي صنعه والحكمة التي تراكت عبر العصور؛ كما يشمل الأجيال القادمة بمعنى عدم القيام بأعمال تمسّ ما يدعم الحياة في المستقبل سواء كان ذلك عن طريق تلويث الطبيعة أو الاستغلال غير المعقول لمواردها أو عن طريق تلويث العلاقات بين الناس.

يمكن أن نستنتج مما سبق أنه يمكن الحديث عن قيم حياتية، ولكن لا معنى للحديث أو الكتابة عن القيم بمعزل عن الممارسة والسياق المجتمعي بمختلف أبعاده. كما أنه لا معنى للحديث عن قيم في السياسة وأخرى في التعليم وثالثة في الدين وأخرى في الاقتصاد أو في العلوم أو في المجتمع أو في الفنون ... وكأن هناك مجموعات مختلفة من القيم في المجالات المختلفة، فذلك يؤدي إلى بلبلية فكرية تضيّع جوهر الأمور وتزجّ بنا في متاهات مثل المتاهات التي نجد أنفسنا فيها نتيجة تجزئة المعرفة إلى ما لا نهاية في الأنظمة التعليمية السائدة. إن تجزئة القيم حسب المجالات المختلفة في الحياة هو مظهر آخر من مظاهر مدى استبطاننا لـ"فيروس" التجزئة الذي يعشّش في ثنايا تفكيرنا.

إذا كانت، مثلاً، قيمة المسؤولية إحدى القيم التي تحكم حياة شخص، فإن ذلك يعني أن الشخص يعيش تلك القيمة في مختلف نواحي الحياة ومجالاتها. كذلك، إذا كانت قيمتا السيطرة والربح قيماً تحكم حياة شخص، فإن ذلك يعني أن الشخص يعيش هاتين القيمتين في مختلف نواحي الحياة ومجالاتها. من الممكن بالطبع أن نسأل هذا الشخص أو ذاك أن يوضّح كيف يترجم هذه القيمة أو تلك في هذا المجال أو ذاك؛ في التعليم مثلاً أو في السياسة أو الدين أو العلوم أو الاقتصاد.

سأختار قيمة الكرم كمثال لتوضيح ما أقوله، وهو قيمة عُرف بها العرب على مرّ العصور. والكرم يعني إعطاء الآخرين ما لدينا دون مقابل، إذ أن كل ما نطمح فيه هو الإسهام في جدل النسيج الاجتماعي الروحي بين الناس. وتظهر قيمة الكرم في أروع أشكالها في العلاقة مع الغريب، وليس فقط مع الصديق أو القريب. يمكن أن نسأل: كيف نترجم قيمة الكرم في مجال التعليم، مثلاً؟ لعل أهم مظاهر الكرم في التعليم يكمن في الإصغاء، في إصغاء المعلم للطالب، أي في إعطاء وقته وأذنيه وقلبه للطالب. معظم الذين سألتهم، وهم أكثر، عن المعلمين الذين ما يزالون يتذكرونهم بؤدّ منذ أيام الدراسة، كان ما ذكرته الأغلبية قريباً مما يمكن تسميته بالكرم في علاقة ذلك المعلم بطلبته. ولعل من الجدير هنا ذكر أحد أبرز التربويين العرب الذين عاشوا وعملوا في بداية القرن الماضي، وأكثرهم إلهاماً، ألا وهو خليل السكاكيني الذي كان متميزاً كمعلم في كرمه وقيمه وإدراكه وليس فقط في معرفته. والتميز في المعرفة ليس تمييزاً بالمعنى الحقيقي لأن من السهل نسبياً أن يتميز شخص بمعرفته أما التميز بالكرم والقيم والإدراك فهو أعمق وأعرق وأفعل في نفوس الناس، وبوجه خاص في نفوس الأطفال والطلبة^(١).

بناء على ما سبق، لن أتحدث في هذه الورقة عن القيم بمعزل عن الأفعال والخبرات والمجموعات التي عشت وتعاملت معها أو بمعزل عن السياق الحياتي الذي عشناه معاً كمجموعات وعملنا فيه. وبناء على ما سبق أيضاً، فإن القيم، مثلها مثل أي ناحية جوهرية أخرى في حياة الإنسان، لا يمكن تدريسها بالوسائل والمفاهيم والبنى السائدة في مجال التعليم، أي عن طريق مساقات وبرامج وامتحانات، مثلاً، إذ لا يمكن تحويلها إلى مهارات آلية، ولا يمكن تجريدها عن سياق حقيقي وعن علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقتهم مع الطبيعة. فتحويلها إلى مهارات وتجريدها عن التعامل والسياق يمسخها، ويسلبها روحها وجوهرها وتصبح بالتالي متناقضة مع ذاتها. فالقيم ليست

(١) لا أعرف كلية تربية أو جهاز تربية عربياً يعتبر الكرم قيمة جوهرية في التعليم ويبني عليه. لذا أمل أن تبادر كلية أو جهاز أو هيئة بعقد لقاء، ربما بالتعاون مع "الملتقى التربوي العربي"، حول كيفية استعادة الكرم كقيمة أساسية في التعليم في الدول العربية.

شعارات تُرفع أو أفكاراً تناقش، وإنما قناعات تتجسّد من خلال تصرفاتنا وسلوكنا وتعاملنا مع الآخرين. هي مبادئ متضمنة في أفعالنا وعلاقاتنا.

جاء في الإسلام "الدين هو المعاملة"، وجاء على لسان المسيح عليه السلام: إذا قال أحدكم إنه يحب الله ولكنه يكره جاره فهو كاذب. بعبارة أخرى، تؤكد العبارتان على أن المعيار هو علاقتنا مع الآخرين، كيف نعاملهم ومدى صدقنا معهم ومحبتنا لهم، أي أن الفاصل بين الواقع والادعاء بالنسبة للقيم يكمن في الأفعال وليس في الأقوال. بالنسبة للنبي محمد وللمسيح، عليهما السلام، كان تركيزهما على الإنسان الصالح، الإنسان التقي، وليس على المواطن الصالح - كما تركز على ذلك الأيديولوجيات السائدة حالياً، بما في ذلك المناهج المدرسية والجامعية. فولاء الإنسان الصالح هو للإنسان والطبيعة بمعنى أنه لا يفعل ما يمكن أن يضرّ بهما. أما ولاء المواطن الصالح فهو لدولة حيث يمكن أن يقوم، بناء على أوامر من تلك الدولة، بما يتناقض مع مصلحة الإنسان والطبيعة معاً. بعبارة أخرى، القيمة الأكثر جوهرية هي الأنسنة الصالحة وليست المواطنة الصالحة، إلا إذا كانت الأخيرة أصلاً غير متناقضة مع الأولى.

أولاً: القيم والتعليم

هناك مدخلان رئيسيان للتعلم. المدخل الأول يبدأ بمنهاج، أهم صفاته أنه مجزأ إلى مواضيع مشرذمة، وأنه يوضع في غياب المعلم والطالب (أهم طرفين في العملية)، وأنه ينتهي بامتحانات وعلامات، تعتمد على عملية غريبة ومربكة، ألا وهي وضع الطلبة على خط رأسي بحيث يحدد موقع الشخص، على ذلك الخط، قيمته. (ربما يكون استعمال التفكير الكمي في قياس الناس والمجتمعات هو أكبر إساءة لاستعمال الرياضيات في تاريخها). وقد بلغ الوضع درجة عالية من اللامعقولية في السنوات الأخيرة، إذ يمكن أن تقبل جامعة طالباً حصل على معدل ٨٩ مثلاً بينما لا تقبل طالباً آخر حصل على ٨٨,٥ بحجة أنه غير مؤهل!

والمشكلة هنا أن معظم الناس يقبلون بذلك وكأنه يعكس حقيقة ما في الواقع. أما المدخل الرئيسي الثاني للتعليم فهو الذي يعتبر التعلم جزءاً لا يتجزأ من الحياة - بل أكثر من ذلك إذ يعتبر التعلم مرادفاً للحياة.

إن الاختلاف الرئيسي بين المدخلين يكمن في القيم التي تحكم كلا منهما. فالقيم التي تحكم المدخل الأول يمكن تلخيصها بالفردية والمنافسة حول مكاسب شكلية ورموز لا قيمة حقيقية فيها، وبالسيطرة والفوز على الآخرين. أي أن قيمة الشخص ترتبط بما يكتسبه من رموز وبمقارنته مع الآخرين حسب مقياس خطي عشوائي إلى حد بعيد. وبسبب هذه القيم ينمو ويتعرض زيف فكري وعملي، وعملية غش مستترة أو ظاهرة، في مجال التعليم والمعرفة^(١). إن غياب الأمانة الفكرية مرتبط عضوياً بالقيم التي تحكم حالياً التعليم والتنمية وإنتاج المعرفة ونشرها، بأشكالها السائدة. فربط قيمة الإنسان برموز مرتبطة بفلك السيطرة وليس بما يحسنه فعلاً (بالمعاني المتعددة لكلمة "يُحسن")، يؤدي إلى أن يحاول الشخص (أو المؤسسة) القيام بأي عمل يكسبه بعض الرموز.

أما القيم التي تحكم المدخل الثاني فيمكن تلخيصها بما يلي: الحياة هي البداية والموضوع والمرجع والمعيار. أي عدم التناقض مع ما يدعم الحياة وما يحافظ على الطبيعة والعلاقات الجميلة بين الناس. وهذا يعني أن الكرم والشعور بالمسؤولية والعمل بموجبهما، وأن ما يحدث لعالم الإنسان الداخلي أو للنسيج الروحي الاجتماعي الثقافي مع الآخرين، هي قيم أساسية ضمن هذا المدخل. من هنا فإن العمل الذي يقوم به الشخص، والخبرة التي يكتسبها، يشكلان المادة الأساسية في عملية التعلم. أي أن قيمة الشخص لا يعطيها "مسؤول أو خبير" ولا يقررها امتحان عشوائي وإنما من خلال ما يُحسن عمله في الحياة. وهذه أمور لا وجود لها حالياً في العملية التربوية التعليمية بشكلها السائد.

هناك سؤال من الضروري أن نجيب عليه في وقت ما، ألا وهو: كيف ومتى تحوّل قياس قيمة الإنسان إلى رقم عشوائي والذي كثيراً ما يؤثر على حياة

(١) ظهر مؤخراً العديد من حالات الغش في أمريكا قامت بها المدارس نفسها حتى تظهر وكأن نتائجها ممتازة. انظر مثلاً ما ورد في جريدة واشنطن بوست (Washington Post, April 2000)

الشخص في المستقبل رغم أنه خالٍ من أي معنى، وكيف قبل الناس بعملية المسخ هذه؟! كيف يمكننا تبرير إعطاء شهادات رسمية، ومصدّقة من تربويين، مثل شهادة التوجيهي (الثانوية العامة)، تنص على أن شخصاً ما، وهو في الثامنة عشرة من العمر، وقبل أن يدخل الحياة، بأنه فاشل!! ويكتسب السؤال أهمية أكبر في مجتمعات، مثل مجتمعنا الذي جاء على لسان أحد رواده في التعلّم، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قبل ١٤٠٠ سنة: "قيمة كل امرئ ما يُحسن". فحسب هذه العبارة، لا يتنافس الإنسان مع غيره بقدر ما يتنافس مع نفسه - إذا جاز التعبير. فالتحسن نابع من داخل الشخص، وأساسه العمل الحسن في المجتمع، وروح العطاء، والجمالية والإتقان في العمل - وهي المعاني المتعددة لكلمة "يُحسن" في اللغة العربية (فاشة، ٢٠٠٠).

ثانياً: القيم التي نمت وتبلورت لديّ عبر الثلاثين سنة الماضية

كان لحرب عام ١٩٦٧ وقعٌ كبير عليّ وخاصة بالنسبة لإدراكي وعملي فيما يتعلق بالتعليم والتعلم والمعرفة. كانت تلك الحرب أول مرة أعني فيها مدى الهوة بين التعليم والواقع، ومدى بُعد المتعلم عما يجري حوله، وفوقه وتحتة. كان أول رد فعل لدي هو أن أقرأ ما كان مهملًا ومطموساً في المدرسة والجامعة. وقد كانت أول خبرة لي، أستطيع أن أقول أنها بدأت في خلق وعي لديّ حول مركزية القيم في الحياة، في مجالين: إنشاء العمل التطوعي وتطوير تدريس الرياضيات، وكلاهما حدث في الضفة الغربية بفلسطين خلال عقد السبعينات.

بدأ العمل في المجالين بمجموعة صغيرة من الأشخاص. وكان تركيزنا على ربط أقوالنا وأفكارنا بأفعالنا والسياق الذي نعيشه، أي بالحياة. كان التركيز على استعادة قيمة الخبرة والسياق في التعلم، وعلى التعبير عن الخبرة والسياق. كان التركيز على أهمية بناء "العالم الداخلي" للأشخاص وبناء النسيج الاجتماعي الفكري الروحي في المجتمع. كذلك، بدأت المسؤولية تبرز كقيمة أساسية بمعنى أن يسأل الشخص أو المجموعة أنفسهم ماذا يمكن أن يفعلوه ومن ثم يقومون بفعله. هذه هي القيم التي بدأت بالتبلور من خلال العمل والحوار.

سأسهب بعض الشيء فيما يلي بالنسبة لعملية في تطوير تدريس الرياضيات في الضفة الغربية لتوضيح هذه الأبعاد والقيم.

بدأت فكرة مشروع تطوير تدريس الرياضيات عندما كنت أعلم في جامعة بيرزيت. فكرنا عندها بإقامة دورات لمعلمي الرياضيات في المرحلة الثانوية في مدارس الضفة الغربية، وذلك لتطبيق "الرياضيات المعاصرة" فيها. تقدمنا باقتراح إلى مدير التربية والتعليم في منطقة رام الله، وبدأ التدريب فعلاً في صيف ١٩٧٢. في العام التالي أخذت إجازة من جامعة بيرزيت وعملت مدة خمس سنوات في سلك التعليم كموجه مركزي للرياضيات ومدير لجميع دورات وورش العمل للمعلمين في الضفة الغربية.

كانت أول خطوة هي قيام ١٤ شخصاً من المهتمين بتدريس الرياضيات بتكوين مجموعة أسميناها "لجنة تطوير تدريس الرياضيات المدرسية". وبدأنا بالاجتماع أسبوعياً من أجل وضع تصور للعمل وكيفية البدء فيه. كانت مدة أول ورشة عمل ثلاثة أسابيع وضمت ٢١٤ معلماً ومعلمة، كانوا يدرسون وينامون ويأكلون في الموقع. ان أروع ما حدث في تلك الورشة وأكثره قيمة في رأيي لم يكن المحاضرات التي كنا نعطيها ولا المادة أو المناهج الجديدة التي ندرّسها وإنما النقاشات التي كانت تدور في كل مساء بين المشاركين حتى الساعات الأولى من الصباح. كانت تلك أول مرة أعني فيها بشكل صارخ قيمة الحوارات الحرة التي يكون الدافع لها نابعاً من الذات، وليس امتحاناً هزلياً أو جواً مبرمجاً مثل ما يحدث غالباً داخل الصفوف.

أما بالنسبة للتطبيق في المدارس خلال السنة الدراسية التالية فقد كان أهم ما ميزها هو نشوء مجموعات محلية على مستوى كل لواء وعلى مستوى بعض المدارس. وقد كانت تلك المجموعات تعمل على تنشيط العمل وتفعيله والقيام بنشاطات متنوعة مثل لقاءات حوار وإصدار نشرات وإنشاء نوازل للعلوم والرياضيات. وعيت من خلال تلك التجربة قيمة المجموعات الصغيرة التي تتكون بمبادرات ذاتية، في أي عملية تطوير أو بناء. فأى عملية تطوير أو تحسين

أو بناء تفتقر إلى وجود مجموعات صغيرة، تتكون بمبادرات ذاتية كجزء أساسي من تلك العملية هي، في رأبي، نوع من خداع الذات.

بعد البدء بتطبيق المناهج الجديدة، بدأت أشعر بأن لذلك لمعانه ولكنه يفتقر كلياً، مثله مثل المناهج السابقة، إلى أي ارتباط بحياة الطلبة وخبراتهم وتساؤلاتهم وتجاربهم. كان جزء من عملي كموجه مركزي للرياضيات زيارة المدارس في جميع أنحاء الضفة الغربية و"توجيه" المعلمين والطلبة. بدأت أطرح فكرة إنشاء نوادٍ للعلوم والرياضيات في المدارس. كان الحماس عالياً بين الطلبة وبعض المعلمين والمعلمات، وكان هناك سؤال يُطرح دوماً عند عرض الفكرة: "كيف يمكن أن نبدأ وما هو موضوع النوادي؟" كنت أجيب: "نبدأ بأسئلتكم، فهي الموضوع الرئيسي للنوادي. تعالوا الأسبوع القادم، كلُّ مع سؤال واحد على الأقل، سؤال حول الحياة وليس منقولاً من كتاب. فالعلم يبدأ بأسئلة وليس بإجابات جاهزة." ما تبع ذلك كان من أجمل ما عشته وخبرته في حياتي في مجال التعليم. بدأت النوادي بالنشوء في مدارس عدة ومواقع مختلفة. وبدأ الطلبة في هذه المدارس بالعمل ضمن مجموعات صغيرة، تتكون بمبادرات ذاتية يجمع كلا منها اهتمام أو سؤال مشترك. وبالرغم من أن العديد من المعلمين ذكر أنه بدون علامات أو مكافآت من نوع ما فإن الحماس لن يستمر وأن الطلبة لن يصمدوا في العمل، إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً. واستمرت النوادي وانتعشت أكثر حتى أغلقتها السلطات الإسرائيلية. فقيام الطلبة بطرح أسئلة ومحاولة إيجاد إجابات لها ضمن مجموعات صغيرة، هو من أهم ما يبني "العالم الداخلي" للفرد والنسيج الاجتماعي الفكري في المجتمع.

كان المعلمون في إصرارهم على ضرورة إعطاء مكافآت وعلامات يفكرون من خلال القيم السائدة التي تمثلت في هذه الحالة بإعطاء رمز لا علاقة له بالعمل نفسه وبافتراض أن فهم العالم ليس شيقاً في حد ذاته للطلبة. كنت أقول للمعلمين: "إذا كان السبب في اهتمام الطلبة هو مثل هذا الرمز، فلا معنى لوجود النوادي." كان التحدي هو في تغيير القيم التي نعمل بها في المدارس، لا في إضافة نشاط هنا ونشاط هناك. لقد أبرزت تلك التجربة قيمة الأسئلة الحياتية والجهد الشخصي-الجماعي في التعليم والتعلم. (Fasheh, 1982)

في الوقت نفسه، بدأتُ بنشر مجلة حول تدريس الرياضيات، تلتها مجلة حول تعليم العلوم. كان أحد أهم أدوار المجلة هو التواصل بين المجموعات المختلفة وإبقاء الصورة "الكلية" حية تتعدّل باستمرار. كانت المجلة تجسيدا لقيمة التواصل والتكامل وعدم الشذمة والانعزال.

كانت تلك الفترة هي الفترة التي "اكتشفت" فيها رياضيات أمي الأمية. علّمني ذلك الاكتشاف أن قيمة الإنسان الحقيقية تكمن فيما يحسنه لا في شهاداته ومؤهلاته أو الوظيفة التي يشغلها، كما أبرز ذلك الاكتشاف أيضاً تخلف التعليم ليس فقط فيما يعطيه وإنما أيضاً فيما يطمسه (Fasheh, 1990). كذلك، فقد كانت تجارب تلك الفترة الأساس الذي ألهمني في كثير مما قمت بعمله فيما بعد، سواء أكان ذلك بالنسبة لقيامي بتعليم الرياضيات للعمال الأميين في الجامعة أو لطلبة السنة الأولى فيها، عن طريق مساق تبلور لذلك الغرض، نتج عنه كتاب أسميته "الرياضيات في الاتجاه الآخر".

شملت تجربتي في جامعة بيرزيت عملي كعميد للطلبة مدة ثلاث سنوات، وقد عمّقت فيّ (من بين ما عمّقته) القيمة الجمالية في التعبيرات الفنية، وذلك عن طريق خلق نشاطات عديدة ومتعددة في الجامعة، وقيمة أهمية وجود حلم كبير فيما يُشار إليه عادة بالتعلم النشط والتعلم الشامل، مما كان واضحاً بين الطلبة بحكم الوضع الفلسطيني الذي يفرض التفكير والعمل باستمرار ضمن حلم كبير.

ثم جاءت الانتفاضة في نهاية العام ١٩٨٧ بعفويتها وحيويتها ومنطقها الذي كان مغايراً للمنطق السائد، لتذكرنا بقيم طمستها أجواء التعليم والتنمية والإعلام وأيديولوجية الاستهلاك السائدة (لنتذكر أصل معنى كلمة "استهلاك" في اللغة العربية: طلب الهلاك). ومن بين القيم التي نكرتنا بها الانتفاضة: الاعتماد بشكل رئيسي على ما هو متوفر لدى الناس والمجتمعات، والصداقة والمحبة والتكافل والتحادث واللعب في الحارات والمشى في الجبال والسهول والوديان وشرب الماء والكرم والتنوع. ولعل أهمّ بُعد للانتفاضة كان في استعادة الأمل والمسؤولية كقيمتين يعيشهما الناس في مختلف نواحي الحياة، والذي كان أحد

مظاهرها قيام كل شخص تقريبا بسؤال نفسه: "ماذا يمكنني أن أفعل؟" وقد سألت نفسي هذا السؤال وقتئذ، كما سأله آخرون. كنت في الجامعة وكانت مغلقة لعدة سنوات (كبقية الجامعات والمدارس بقرار من السلطات الاسرائيلية) وحاولت أن أفعل شيئاً ذا معنى ولكنني وجدت الجامعة (مثلها مثل الجامعات عادة) غير قادرة على التأقلم مع ما يستجد حولها. عندها قررت أن أترك الجامعة وأنشأت "مؤسسة تامر" التي كان محورها كما جاء في بعض أدبياتها "استعادة التعلم بعد أن صادره التعليم؛" و"تكوين أجواء تعلمية". وقد تمّ نشر كتيب عام ١٩٩٥ بعنوان "التحدي الرئيسي: إنهاء احتلال العقول؛ الوسيلة الرئيسية: خلق أجواء تعلمية". وقد كانت حملة القراءة (وما زالت) من أهم مشاريع المؤسسة وأشملها كمثال على خلق أجواء تسير وفق قيم مغايرة للقيم السائدة، مثل القراءة نفسها، والتأمل في الخبرات والتعبير عنها، وتشكيل مجموعات صغيرة تعمل في المجتمع، والتواصل بين المجموعات المختلفة، واستعادة الأمل والمسؤولية. كانت هذه القيم وما زالت هي القيم الرئيسية التي تحكم الفكر والعمل في نشاطات الحملة. كذلك، استعنا بشخصية مسرحية للأطفال، هي شخصية "نخلة الشبر"، كان قد أنشأها فنانون قبل الانتفاضة بقليل ولكنها توقفت مع بدء الانتفاضة. وقد كان جزء أساسي من العروض في حملة القراءة هو قيام الأطفال بعرض ما يودون عرضه بعد عرض "نخلة الشبر"، وكانت عروض الأطفال تأخذ شكل حركة أو أغنية أو رقصة أو قصة أو شعر. وجدنا أن التعبير المسرحي ربما يكون أقرب التعبيرات إلى قلوب الأطفال وأسهلها عليهم، إذ كانوا يقومون به بتلقائية فيها صدق وجمال؛ إذ إن كل ما كان ضرورياً كما وجدنا هو فسحة خالية من أي حكم على الطفل، وجوّ تسوده روح العشرة. كذلك، فقد استعملنا "جوازات سفر" للقراءة كوسيلة لتعميق بعض القيم مثل القراءة ذاتها ومثل الحفاظ على سجل لما يقرأه الشخص (Fasheh, 1995).

في جميع هذه الحالات والمواقع، كان العمل تجسيداً لقيم تبلورت مع الوقت، من خلال العمل والحوار، وذات علاقة بالتعليم والتعلم. ويمكن تلخيص هذه القيم فيما يلي:

١. العمل ضمن مجموعات صغيرة

مجموعات تتكون في مواقع مختلفة بمبادرات ذاتية، تختار ما تود القيام به، وذلك ضمن رؤيا مشتركة وقيم مشتركة وضمن شبكة من المجموعات التي تعمل ضمن تلك الرؤيا والقيم. كان هناك إلى جانب المجموعات في المواقع المختلفة، مجموعة "مركزية" من الأشخاص تجمعهم صداقة، كما تجمعهم بنية مرنة، دورها الرئيسي ليس السيطرة على العملية بل إبقاء الحوار حول العلاقة الديالكتيكية بين العمل والرؤيا قائماً وحياءً، وإبقاء التواصل بين الأطراف المختلفة وبين المجموعات المحلية قائماً، والنظر إلى مختلف الأجزاء على أنها تشكل معاً كلاً متكاملًا، وضمان إبقاء الجو والعلاقات منعشة وملهمة. كانت هناك فسحة واسعة لقيام الأشخاص في المواقع المختلفة بتشكيل مجموعات واختيار نشاطات. لم يكن هناك دستور أو قوانين صارمة وإنما نوع من التفاهم المشترك، بما في ذلك الاتفاق على قيم ومبادئ تحكم العمل. أما ذلك الفهم المشترك والقيم المشتركة فقد كانت تنمو وتتبلور عبر العمل نفسه وعبر الحوارات. لم تكن قيمة المشاركة شكلية ولم تكن شعاراً يُرفع في المناسبات ويمارس في أوقات متباعدة، مثل التصويت في اختيار لجنة أو في اتخاذ قرار، وإنما قيمة حقيقية بمعنى المشاركة الفعلية في عملية البناء على المستويات المختلفة بشكل يومي تقريباً - البناء على المستوى التعبيري والفكري والاجتماعي والروحي والثقافي.

٢. ربط المعرفة بالحياة

في جميع الحالات، كانت هناك محاولة جادة لبناء معانٍ ومفاهيم تنبع من الحياة، أي ممارسة قيمة ربط الأفكار ومعاني الكلمات بالأفعال والسياق الحقيقي الحياتي الذي يعيشه الناس، ليس كما تفعل الكتب المدرسية والجامعية تحت العنوان المزيف "تطبيقات عملية"، وإنما عن طريق التأمل في الأعمال والخبرات والتعبير عنها واعتبارها أساساً في بناء العالم الداخلي للإنسان والنسيج الاجتماعي الفكري الثقافي في المجتمع. بعبارة أخرى، تكمن قيمة الإنسان في حياته وتجاربه، ولكن حتى تظهر تلك القيمة، نحتاج إلى تحويل حياتنا وتجاربنا إلى خبرات وتعلم وتعابير.

٣. الأمل والمسؤولية الشخصية

تضمنت كل مبادرة من المبادرات المذكورة أعلاه أيضاً أملاً وشعوراً بالمسؤولية. كانت كل مبادرة فعلَ أمل، وتعبيراً عن روح المسؤولية. وأي شخص أو مجتمع يفقد هاتين القيمتين يصبح مثل قشة تتناقلها الرياح كما تشاء. وقد تمثلت هاتان القيمتان، عملياً، بقيام كل شخص (وكل مجموعة) بسؤال نفسه: "ماذا يمكنني أن أفعل؟ كيف يمكنني أن أساهم في عملية البناء على صعيد الذات وعلى صعيد المجتمع؟" بعبارة أخرى، ترتبط هاتان القيمتان بوجود دافع ذاتي نابع من الداخل للعمل والمشاركة والبناء (البناء على الصعيد الاجتماعي الفكري الثقافي الروحي الاقتصادي).

ثالثاً: "الملتقى التربوي العربي" و"قلب الأمور"

كانت الخبرات السابقة، وما تبلور عنها من مفاهيم وقيم، "البذور" الفعلية لمشروع "الملتقى التربوي العربي" و"قلب الأمور". فيما يلي تعريف بـ "الملتقى" وعرض لأحد أهم مشاريعه، "قلب الأمور"، وكيف يجسد هذا المشروع ما جاء ذكره أعلاه، وبوجه خاص دور القيم فيه.

يمر العالم عامة، والعالم العربي خاصة، بتغيرات ترتبط في معظمها بنزعات خطيرة تكتسح العالم حالياً مثل أيديولوجية الاستهلاك وقيمتي الربح والسيطرة، بما في ذلك السيطرة على معاني الكلمات، مما يتطلب ضرورة بلورة رؤيا عربية مشتركة حول التعليم والتعلم. واعني برؤيا هنا، المحاولة الجادة المستمرة لمعرفة الواقع، ووعي موقعنا ودورنا فيه، وبلورة نهج نسير وفقه نحو المستقبل. وتقع القيم في صلب أية رؤيا بمعنى أنها تحكم القول والفكر والعمل في أي مشروع يرتبط بالرؤيا. من الواضح أن بلورة رؤيا من هذا النوع تستدعي مشاركة واسعة من المهتمين والعاملين في مختلف ميادين الحياة، وبوجه خاص أصحاب المبادرات الملهمة في العالم العربي والتي تتضمن بُعداً تعليمياً فيها. وهذا بالضبط ما يحاول "الملتقى التربوي العربي" عمله: الابتعاد قدر الإمكان

عن الجواب والمعنى الجاهزين والنموذج المثالي والمسار الوحيد للتقدم والتنمية؛ وفي المقابل، تشجيع الناس بشكل عام، وأصحاب المبادرات الملهمة بشكل خاص، على التأمّل فيما يعملونه والتعبير عن ذلك ومشاركة الآخرين، وتوضيح القيم التي يعملون وفقها. كل ذلك كأساس لإبقاء التنوع في طرق التعلم والمعيشة قائماً، ولإعادة البناء على صعيد "العالم الداخلي" للإنسان وعلى صعيد النسيج الاجتماعي الفكري الثقافي الاقتصادي في المجتمع. ويقوم "الملتقى" بذلك عبر عدة وسائل ونشاطات، منها: اللقاءات السنوية وسلسلة الكتب بعنوان "قيمة كل امرئ ما يُحسن" التي تصدر عن اللقاءات؛ ومشروع "قلب الأمور"؛ وورش عمل حول محاور محددة؛ واستغلال الوسائل المختلفة للتواصل؛ ومركز معلومات ذو شقين: أحدهما حول المبادرات الملهمة التي يقوم بها الناس، والثاني حول ما يصدر من بحوث ودراسات تتعلق بالتعليم في العالم العربي.

"الملتقى التربوي العربي" هو مبادرة عربية تبنّاها - ابتداءً من شهر أيلول/سبتمبر ١٩٩٨- برنامج الدراسات العربية المعاصرة في مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد لبلورة رؤيا مشتركة حول التعليم والتعلم في العالم العربي؛ هو رؤيا مبنية على مبادرات الناس وأعمالهم وخبراتهم، والتأمّل فيها والتعبير عنها والتناقش والتفاعل فيما بينها والبناء عليها. ومن الواضح أن ما أنتجه العرب في الماضي وما أنتجته شعوب أخرى هما بمثابة موارد تتفاعل معها، والتي من الممكن أن تُغني عملية البناء المرجوة.

يُميز الملتقى بشكل واضح بين مفهومي التعليم والتعلم، وينحاز بشكل واضح نحو التعلم بصفته جوهر الموضوع، بل جوهر الحياة وروحها، ويكاد يكون مرادفاً لها. من هذا المنطلق، ينظر الملتقى إلى التعليم، بمظهره المدرسي والجامعي، على أنه أحد الوسائل/الفسح التي تساعد على حدوث تعلم. ينبع من هذا أمران: أولاً، يجب أن لا يحتكر التعليم عملية التعلم؛ وثانياً، إذا لم يجسّد التعليمُ التعلم فإنه يفقد مبرر وجوده. وهذا يعتمد بالطبع على ما يعنيه الشخص أو المجموعة بالتعلم. لذا، فإن أحد الأسئلة الجوهرية في "الملتقى"، هو سؤال من الضروري أن يطرحه كل شخص على نفسه: "بأي معنى أتعلم؟ وبأي معنى أبني؟"

أما بالنسبة لمفهوم التعلم في "الملتقى التربوي العربي" فيشكل تأملُ الناس في حياتهم وخبراتهم، والتعبيرُ عنها، مكونين أساسيين في المفهوم. وتشمل المكونات الأخرى التحادث والتناقش والقدرة على الوصول إلى المعلومات اللازمة وبلورة رؤيا والعمل ضمن مجموعات صغيرة (يتضمن عملها بناء العالم الداخلي للإنسان وجدل النسيج المجتمعي المشار إليهما سابقاً).

إن مفهوم التعلم هذا يجسد النظرة إلى الناس كبنين لأنفسهم وللمجتمع ولمعاني الكلمات والمعرفة. كما أنه يضمن التنوع والحوار اللذين يشكلان أساساً لنمو الأفراد وازدهار المجتمعات. فبدون التأمل والتعبير، مثلاً، تضع الأصال والمشاركة الفعلية للناس. وبدون العمل ضمن مجموعات صغيرة والتناقش فيما بينها ينمو الأفراد دون فكر جماعي. من هذا المنطلق، يحاول الملتقى أن يبرز التنوع والغنى الموجودين في الحياة والناس والمجتمعات البشرية، ويعطي لها جميعاً قيمة ومرأى وشرعية.

فيما يلي عرض موجز لمشروع "قلب الأمور" كتجسيد لرؤيا "الملتقى"، وبوجه خاص كيف يستبطن هذا المشروع ويجسد أهمية وجود قيم مشتركة في أية عملية تعلم.

١. مشروع قلب الأمور

حياتي موضوع تأملي وتعبيري... وتعبيري أساس تعليمي

٢. ماهية المشروع وفلسفته

مشروع قلب الأمور، في جوهره، هو إيجاد مساحات وفسح وأجواء تساعد الناس والمجتمعات على التأمل والتعبير والتواصل والتعلم والبناء. "المادة الخام" في المشروع هي حياة الناس وتجاربهم وخبراتهم. أما المعنى بالتعلم والبناء في المشروع فهو بناء "العالم الداخلي" للإنسان، والنسيج الاجتماعي الفكري الثقافي الروحي الاقتصادي في المجتمع. ولعل أهم عامل في بناء "العالم الداخلي" للإنسان هو التأمل والتفكير في حياة الشخص وما يفعله وما يمر به من

تجارب وخبرات والتعبير عنها بما في ذلك بناء معان للكلمات والمصطلحات المتداولة. ولعل أهم عامل في بناء النسيج الاجتماعي الفكري الثقافي الروحي في المجتمع هو مجموعات صغيرة تتكون بمبادرات ذاتية تعمل ضمن سياق الحياة وتتواصل وتتناقش فيما بينها حول ما تعمله وتفكر فيه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن مجلة "قلب الأمور" هي أحد الأشكال التي يمكن أن تأخذها هذه المساحات والفسح، إذ يمكن أن يأخذ المشروع أشكالاً أخرى قد يستعملها الناس للتعبير عن حياتهم، مثل أفلام الفيديو والصور الفوتوغرافية والدراما والرسم والمسرح والرقص والموسيقى - أي شكل طالما أنه صادق وناتج عن مجموعة تنطلق في عملها من اعتبار حياة الناس موضوع تأملهم وتعابيرهم وأساس تعلمهم، وطالما أنه لا يتناقض مع المبادئ والقيم التي أتفق عليها. بهذا المعنى فإن المشروع ليس منبراً للتعبير عن آراء وإنما منبراً للتعبير التأملي عن حياة وخبرات بحيث يكون ذلك أساساً لبناء الذات والمجتمع. ويتضمن هذا تلقائياً وبالضرورة مبدأً أنه لا توجد خبرة لا قيمة لها، ولا يوجد تعبير سخيف أو خاطئ إذا كان صادقاً مع تلك الخبرة.

يرتكز المشروع على مفاهيم ومبادئ وقيم ورؤيا مشتركة، وليس على جهاز هرمي. أي أن المقرّر فيما إذا كانت مساهمة ما تتوافق أو تتعارض مع المشروع هو المبادئ المشتركة وليس رئيس تحرير أو من ينوب عنه. بعبارة أخرى، لا توجد وصاية من شخص على شخص، فبإمكان أي مجموعة أن تأخذ المبادرة وتصدر مجلة "قلب الأمور" الخاصة بها شرط أن يكون موضوع المجلة هو حياة الناس وشرط أن تلتزم المجموعة بالمبادئ والقيم المشتركة وتنشرها على صفحة الغلاف الخلفية من المجلة.

٣. المبادئ والقيم التي تحكم القول والفكر والعمل في "قلب الأمور"

- الإنسان هو بان إمعان وتعابير ومعارف ومجموعات بشرية وليس مستهلكا لها.

- يحدث البناء على صعيدين متداخلين ومتكاملين: العالم الداخلي للإنسان، والنسيج الاجتماعي الفكري الثقافي الروحي الاقتصادي في المجتمع.
- تبدأ عملية البناء بما هو موجود وإيجابي وملهم (وليس بالاحتياجات والسلبيات والنواقص).
- كل شخص يملك تجارب في الحياة، وتكتسب هذه التجارب قيمة عن طريق تحويلها (عن طريق التأمل والتفكير) إلى خبرات وتعابير ومفاهيم، ولا توجد خبرات لا قيمة لها.
- لا معنى للتعلم والحياة كوحدة متكاملة بدون التنوع في الخبرات والتعابير والمعارف وطرق الحياة.
- الشعور بالمسؤولية نحو الذات والآخرين والطبيعة والعمل وفقه.
- تُبنى المعرفة جماعياً من خلال التفاعل مع المحيط الاجتماعي والطبيعي.
- التعلم السليم، مثل التنفس السليم، لا يتم إلا إذا حدث بشكل متكامل داخل الإنسان وخارجه.
- الحضارة العربية معروفة بالضيافة والكرم، والقراءة مظهر من مظاهر الضيافة إذ نستقبل عن طريقها الأفكار، بما في ذلك الغريب منها لتدخل في أعماق بيوتنا البشرية - أنفسنا. كذلك فإن الكتابة النابعة من تأمل هي مظهر من مظاهر الكرم بحيث نشارك الآخرين بأعز ما نملك - أنفسنا. من هنا فإننا نعتبر القراءة والكتابة التأملية عادتين وقدرتين أساسيتين في المشروع.
- اللغة الأساسية في المجلة هي العربية الفصيحة، ولكن تقبل مساهمات بلغات يستخدمها عدد كبير من العرب في بلدانهم أو بين المهاجرين منهم في بلدان أخرى. كما تقبل مساهمات بأية لغة متداولة في البلدان العربية.
- يرتكز المشروع، كمشروع تعليمي، على أهمية أن يمر أعضاء المجموعة بجميع مراحل العمل. فإذا كان الشكل الذي اختاروه هو مجلة، فإنه من الضروري أن يمروا بمرحلة التأمل والتعبير والتحدث والتناقش والتجميع والتحرير والتنظيم والحوار والتواصل والإنتاج وتأمين التكاليف والنشر.

٤. العمل

توجد مجموعات عدة حالياً، في دول عربية مختلفة، يعمل كل منها على عدد خاص به من "قلب الأمور". كل مجموعة تعمل ضمن تصورها وضمن معطياتها وإمكاناتها. ما يجمعها جميعاً هو (١) أن حياة الناس تشكل موضوع المجلة الأساسي، و(٢) التوافق مع القيم والمبادئ المشتركة.

من الجدير ذكره هنا انه لا توجد معانٍ لكلمات مثل ناجح وفاشل وصواب وخطأ في المشروع. كذلك، لا توجد لجنة لمقارنة المجالات أو المقالات بعضها ببعض لتقرير أيها أفضل أو لإعطاء جوائز أو غيرها من الرموز والوسائل التي تشوّه جوهر التعلم وتقتل روحه. فكل عدد وكل خبرة وكل تعبير يضيف لونا ومعنى وغنى للحياة التي نعيشها ولعملية البناء التي نطمح لها. فما نسعى نحوه هو إعادة الاعتبار لحياة الناس وخبرات الناس، كل الناس، وإعادة القيمة للتأمل والتفكير والصدق والتنوع في التعبير، والجدوى في تكوين معاني الكلمات، وإعادة تسيير الأمور في المجتمعات بناء على قيم ومبادئ مشتركة وليس على حكم عشوائي أو نموذج جاهز أو خبير فقد أمانته الفكرية وعلاقته بالحياة.

لقد صدر حتى تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ عددان من المجلة، الأول في بيروت/لبنان في شهر أيلول / سبتمبر، والثاني في عمان/الأردن في شهر تشرين الأول/أكتوبر. ولعل من الجدير ذكر "قصة" العدد الأول فهو أول مظهر محسوس من مظاهر المشروع، وبالتالي يوضح كيف أن الممارسة هي التي تعطي الكلمات والأفكار معاني حقيقية، ويوضح أيضاً أهمية "الإصغاء" للحياة والتجربة والعمل في بناء الفكر وبلورة الرؤيا وتصميم العمل.

خلال زيارة لي إلى بيروت في أوائل شهر حزيران/يونيو، التقيت طالبتين في المرحلة الثانوية وتحادثنا مدة تقارب الساعتين. قامت الطالبتان فيما بعد بمناقشة الفكرة مع بعض الأصدقاء وعملوا جميعاً طوال فترة الصيف على تجميع كتاباتٍ عن حياة الناس وخبراتهم. وقد مروا بفترات من الإحباط، إذ إن الكثيرين يعدون ولكن القليلين يكتبون. إلا أنهم استمروا في العمل والأمل.

بدأت تبرز تساؤلات من خلال العمل. كان أحدها: "من سيقرّر ماذا ننشر؟" قلت: "المجموعة نفسها. فكلمة تعلم تتضمن ممارسة المسؤولية كاملة. ما يضبط العملية هو ليس رئيس تحرير أو هيئة تحرير أو قرار عشوائي وإنما مجموعة من المبادئ والقيم المشتركة التي تحكم أقوالنا وأفكارنا وأفعالنا وعلاقاتنا". (وهي المبادئ والقيم التي جاء ذكرها أعلاه).

بعثت المجموعة بتساؤل آخر: "يجد البعض صعوبة في التعبير باللغة العربية. ماذا نفعل؟" قلت: "بالرغم من أن اللغة العربية تشكل اللغة الأساسية في المشروع إلا أننا إذا أردنا إشراك كل الأصوات والخبرات في عملية البناء فمن الضروري أن لا نستثني أحداً وان نفتح المجال للتعبير الذي يرتاح له الشخص".

ثم برزت تساؤل ثالث: "باسم من سننتج العدد؟". قلت: "باسمكم كما تختارونه. إذا رأيت المجموعة إصدار العدد باسم المدرسة أو المؤسسة التي تعمل فيها فليكن. وإذا رأيت المجموعة نفسها مستقلة عن أية هيئة فيمكن أن تختار لنفسها أي اسم تراه مناسباً". وقد اختارت المجموعة التي أصدرت العدد الأول في بيروت "ليش لا" اسماً لها.

في النهاية جاء السؤال: "المقالات جاهزة. كيف نصدرها ونحن لا يوجد لدينا مال؟" قلت: "هذا جزء من التحدي الذي نواجهه، من الضروري العمل ضمن ما هو متوفر. إذا كان ما لديكم يكفي لإصدار عشر نسخ فقط، فليكن. كل ما نطلبه منكم هو أن ترسلوا لنا نسخة واحدة على الأقل، وسنقوم بعمل نسخ منها وإيصالها إلى المواقع المختلفة التي تقوم بإصدار المجلة، والتي بدورها ستقوم بعمل نسخ وتوزيعها على المهتمين." [كما أنها ستُنشر على صفحة الإنترنت حال الانتهاء من تأسيس الموقع.] وبالفعل، فقد قامت كل طالبة من الطالبات الخمس اللواتي عملن على المشروع بدفع ما يعادل ١٣ دولاراً وأصدرن مائة نسخة وزعنّها على بعض المهتمين. وقد تمّ نسخ أكثر من ألف نسخة في غضون شهر بعد صدور العدد عن طريق قيام أشخاص في مواقع مختلفة بعمل نسخ وتوزيعها، بما في ذلك ضمن تجمّع للطلبة العرب في منطقة مدينة بوسطن، بالولايات

المتحدة، في شهر تشرين الأول/أكتوبر. كذلك، فقد كانت معي نسخة، حملتها إلى المواقع التي زرتها، فكان إذا أبدى أحدهم اهتماماً بالمجلة كنت أعطيه النسخة التي معي وأطلب منه عمل نسخة وإعادة الأصل لي.

إلى جانب الأعداد التي تصدر محلياً في المواقع المختلفة، ستصدر أعداد من مجلة "قلب الأمور" على الصعيد العربي. إلا أنه بعد صدور العدد الأول في بيروت أعدنا التفكير بالنسبة لمجلة "قلب الأمور" العربية، من حيث علاقتها بالمجلات المحلية. فقد جعل صدور ذلك العدد البعض منا يعيد التفكير فيما إذا كان من الأفضل تأجيل إصدار العدد الأول من المجلة العربية إلى ما بعد صدور عدة أعداد في مواقع عدة. فالأعداد المحلية هي بمثابة الينابيع الصادقة والأصيلة التي تغذي المجلة العربية، والتي هي بمثابة "النهر" الذي يتكون من هذه الينابيع. وتاماً كالنهر، فإن المجلة العربية تسير دون المجلات المحلية وليس فوقها. ويشكل الموقع على الإنترنت الخاص بـ "قلب الأمور" وسيلة أولية في تكوين مثل هذا النهر.

– كيف جسّد العدد الأول قيم المشروع؟

سأختار العدد الأول الذي صدر في لبنان لتوضيح كيف يستبطن ويجسّد مشروع "قلب الأمور"، بصفته مشروعاً يتمحور حول التعلم، قيم المشروع المذكورة أعلاه، وكيف تحكم هذه القيم القول والفكر والعمل في المجلة.

بعد إصدار العدد الأول، ومن خلال التحادث مع الطالبات اللواتي عملن على إخراج وإصداره، بدا واضحاً أن العمل قد ساهم في بناء "العالم الداخلي" لكل منهن، بمعنى أنهن يقمن بالتأمل في الحياة بشكل أكثر من ذي قبل، وأيضاً بمعنى أنهن يشعرن جراء العمل بأن قيمة قد أضيفت لحياتهن. كذلك، فقد جرى إغناء النسيج الاجتماعي الروحي الفكري بينهن وتوطدت الصداقة والألفة والعشرة بينهن.

كما كان العدد تجسيداً لبلورة معانٍ جديدة لكلمات مألوفة مثل كلمة "مجلة" نفسها، ومثل كلمتي تعلم ورؤيا. فمجلة "قلب الأمور" كما ظهر جلياً من

خلال العديدين الأولين تختلف جذرياً عن المعنى المتداول والممارس لكلمة مجلة. ومفهوم كلمة "تعلم" كما تجسده المجلة مختلف وبعيد عن البدء بمنهاج وبمادة وبمعلومات جاهزة وبمهارات آلية وفنية منعزلة بعضها عن بعض ومنعزلة عن الواقع الذي يعيشه المتعلمون. فالتعلم في المشروع، إدراكاً وممارسةً، يبدأ من الحياة وينتهي بها، وبالتالي يربط باستمرار بين القول والفكر والعمل والقيم.

وتنص إحدى قيم المشروع على مسؤولية الناس نحو أنفسهم ونحو الآخرين ونحو الطبيعة بمعنى حمايتهم من الأضرار التي يمكن تجنبها. فمثلاً لو عرضت شركة كولا على مجموعة تعمل على إنتاج عدد من المجلة مبلغاً كبيراً من المال مقابل إعلان في المجلة، تعتذر المجموعة عن القيام بذلك لان ذلك يتناقض مع مبدأ عدم الإضرار بصحة الناس واقتصاد المجتمع كما يساعد في نهب مياه الشرب الشحيحة في معظم البلدان العربية.

كذلك، لم تتمحور المجلة حول الاحتياجات والسلبيات ولم تبدأ بها، وإنما كانت تجسداً رائعاً لما هو متوفر وموجود أصلاً في المجتمع وما هو ملهم للجميع: حياة الناس وخبراتهم وتعايرهم، وكذلك طاقات الشباب وأحلامهم. ظن البعض في البداية أنهم لا يستطيعون الكتابة ولكن بعد أن اكتشفوا أنهم لا يجلسون في امتحان وأنهم ليسوا في قفص اتهام وأن كل ما هو مطلوب منهم هو التأمل فيما يمرون به في حياتهم والتعبير عن ذلك بصدق وبشكل يبني داخلهم ويجدل النسيج مع الآخرين، اكتشفوا أن بمقدورهم أن يعطوا ما عندهم، وأن الإنسان الذي يأخذ ولا يعطي يهمل شريان الحياة الضروري لغذائه النفسي والروحي والثقافي والفكري والاجتماعي. كذلك، ظنوا في البداية أن عدم توفر ميزانية سيجعل الإنتاج مستحيلاً، ولكن سرعان ما اكتشفوا أن القليل الذي استطاعوا أن يجمعوه فيما بينهم تضاعف عشرات المرات عن طريق مشاركة آخرين في تكاليف عمل نسخ في مواقع مختلفة.

لا توجد أبواب في المجلة، فالحياة ليست مجزأة بل وحدة متكاملة تتداخل فيها أبعاد عدة، وكل مقال - بحكم كونه تعبيراً عن الحياة كما يعيشها الشخص

الكاتب - يعكس هذا التداخل والتنوع الطبيعي في حياة المساهمين في المجلة وفي تعابيرهم.

هناك ملاحظة أخرى أرى ضرورة التطرق إليها في هذا المجال. ربما لاحظ البعض بأن كلمات مثل "الديموقراطية" و"التنمية" و"حقوق الإنسان" و"المجتمع المدني" لم تدخل ضمن قيم المشروع. فنحن نعي تماماً الفرق بين قيم تقع في النهاية وقيم تقع في البداية، بمعنى أننا لا نناقضها في أقوالنا وأفكارنا وأفعالنا. فالمشاركة في المجلة، مثلاً، لا تأخذ شكل انتخاب ممثلين أو اختيار هيئة تحرير (فكل شخص يمكن أن يجمع بعض أصدقائه ليكونوا هيئة تحرير لعدد يصدرونه). كذلك لا تأخذ المشاركة شكل تصويت على قرار، وإنما هي مشاركة كل شخص في المجموعة بتعبيره وحياته وصوته شخصياً (وليس عن طريق مندوب أو مراسل)، وعن طريق المشاركة في العمل الدؤوب الضروري في أية عملية بناء ذاتي أو مجتمعي، وعن طريق المشاركة في النقاشات وفي تسيير الشؤون وإدارة الأمور بالنسبة لإصدار العدد. لا نلعب أكلوبة الديمقراطية الشكلية وإنما نمارس المشاركة الفعلية الحقيقية على مختلف الأصعدة. كذلك، لا يلعب المشروع لعبة التنمية، والتي صنفت شعوب العالم ضمن مجموعتين فقط لا غير: شعوب متقدمة وشعوب متخلفة (سميت فيما بعد بالشعوب النامية وهو اسم ملمح دون تغيير المضمون العنصري للكلمة). لا توجد، مثلاً، لجان تحكم أي الأعداد أو المقالات أفضل. فإحدى قيم المجلة هي أنه لا توجد خبرات وأشخاص لا قيمة لهم. إن تصنيف الشعوب إلى متخلفة ومتقدمة (والذي أعلنه الرئيس ترومان في العام ١٩٤٨) لا يختلف في جوهره عن الادعاء بتفوق الجنس الآري، بل هو أخطر منه لأنه مغلف بغلاف خادع مما يجعل المتهم مشاركاً في التهمة، ومما يجعل اختراق المجتمعات ونهب خيراتها مبرراً في نظر الضحية.

كذلك، لا يلعب المشروع لعبة حقوق الإنسان والتي تحوّل الإنسان في أحسن الأحوال إلى مطالبٍ بدلا من فاعلٍ وبارٍ ومنتجٍ، وتهمل كلياً حق الأطفال في حمايتهم من أسوأ الأخطار السائدة حالياً ألا وهو خطر أنماط وقيم الاستهلاك

السائدة، بما في ذلك كل ما يُنتج من (*junk*) سواء في المأكولات أو المشروبات أو الترفيه أو التقييم إلخ. كما تهمل أهم حق تعاني شعوب العالم من غيابه ألا وهو حقها في مواردها الطبيعية مثل الأرض والماء.

ومن أجل تسهيل وتعميق التواصل والتناقش وبلورة رؤيا مشتركة وبناء معارف ذات جدوى، يقوم "الملتقى التربوي العربي" حالياً بإنشاء موقع إلكتروني خاص "بقلب الأمور" على الإنترنت، وستوضع الأعداد فيه. فأحد أدوار "الملتقى" في المشروع هو إيصال ما تنتجه كل مجموعة إلى الآخرين، وإبقاء النقاش مستمراً لمحاولة بناء فهم مشترك ورؤيا مشتركة وعلاقات إنسانية. إلى جانب هذه الأنواع من التواصل، ستعقد لقاءات يلتقي فيها أشخاص أصدروا أعداداً في مواقع مختلفة بهدف تعميق وتوضيح رؤيا ونهج الفكر والعمل في المشروع، وإغناء بعض القدرات.

ملاحظة أخيرة، عندما نتكلم عن قيم، فإننا في الحقيقة نتكلم عن بيئة متكاملة وليس عن أمور تُسقط إسقاطاً على الناس، أي نتكلم عن عناصر ونواح وأبعاد تتكامل ويدعم بعضها بعضاً. و"الملتقى التربوي العربي"، بما في ذلك "قلب الأمور" كأحد مشاريعه، يسعى إلى الإسهام في خلق مثل هذه البيئة.

جاء في عنوان الورقة "بلورة قيم من خلال التجربة والحوار"، وهذا يعني بالضرورة أن ما جاء في المقال هو نتيجة خبرات وحوارات معينة في مواقع معينة، وبالتالي هو جزء من "الصورة الكلية". من الضروري أن يقوم أشخاص آخرون بصياغة القيم كما تبلورت من خلال أعمالهم ومناقشاتهم وخبراتهم بحيث ينتج حوار حقيقي بين الصياغات المختلفة لينتج عنها وعي أشمل ورؤيا أوضح. ومن الواضح أن هذه العملية لا تنتهي.

المراجع

فاشه منير، (محرر)، (كانون الثاني، ٢٠٠٠). قيمة كل امرئ ما يحسن. وقائع وتأملات حول اللقاء الأول للملتقى التربوي العربي.

Fasheh, M. (Nov. 1982). Mathematics, culture and authority. For the Learning of Mathematics. Montreal, Canada.

Fasheh, M. (Feb, 1990). Community education: To reclaim and transform what has been made invisible. Harvard Educational Review, 16 (1).

Fasheh, M. (1995). The reading campaign experience within Palestinian society: Innovative strategies for learning and building community. Harvard Educational Review, 65 (1).

Cheating on rise along with testing. (2000, April). The Washington Post, p. A01.